الفصل الحادي عشر

فاصلة في الرياض

كانت الرحلة إلى الرياض قصيرة وسريعة لم يصطحب فيها الملك أي من زوجاته إذ تركهن جميعًا خلفه في مكة، واستغرقت الرحلة إلى الرياض ذهابًا وإيابًا سبعة أيام، وهي سرعة مثالية في تلك الأيام، إذ تقطع السيارات مسافة ٩٠٠ كلم بين مكة والرياض في ٣٦ ساعة مع السفر ليل نهار.

وبقي الملك في الرياض أربعة أسابيع، قرر بنهايتها العودة إلى مكة. ولم يفكر في الزواج كما فعل أخوه عبدالله الذي تزوج ابنة الأمير سعود بن رشيد ذات الأربعة عشر عامًا. وكان سعود بن رشيد قد قتل عام ١٩٢٠م وأعلن عبدالله أنه لن يأخذها لمكة مخافة مشكلات مع زوجته الأولى بنت متعب بن رشيد ذات الأربعة وعشرين عامًا. وكان متعب أيضًا قد قتل في مذبحة حائل عام ١٩٠٦ / ١٩٠٧م بعد وفاة والده عبدالعزيز في روضة مهنا. أكمل متعب زوجاته بالرابعة. ومن زوجاته الأخريات ابنة عائلة أبا الخيل من بريدة وبدوية من بنات مطير من قبيلة شبلان. ولقد اعتاد الملك على الحياة الأسرية منذ أن توقفت المعارك بعد إخضاعه للحجاز عندما قاد جيشه ميدانيًا لآخر مرة.

وبعد انتهاء المعارك صار الصيد هو النشاط الميداني البديل للملك، وكل يوم تقريبًا في البرد القارس في ذلك الشهر الشتائي، وخلال وجودنا بالرياض كنا نجوب المناطق المجاورة والكثبان الرملية بحثًا عن طير الحباري ذي اللون

الرملي والقطا وطائر الزقزاق. ولا أذكر أن رأيت غزالاً في تلك الرحلات ولكن من يذهب بعيداً يجدها في رمال الدهناء والصحارى المجاورة. وعلى كل لم تكن رحلات الصيد هذه كلها متعة، خاصة عندما تكون في سيارة مع ستة ركاب والسيارة بها سبعة مقاعد وعليها ستائر على الجانبين للوقاية من البرد. وكنت أحياناً أركب سيارة الأمير عبدالله المفتوحة أثناء النهار، وكنا نستطيع التصويب على طائر من حولنا. ولكن طريقة الملك كانت مختلفة فقد كان يحمل بندقتيه «ماقازين» مزودة بطلقات من الدرجة الأولى وكان يسير بالسيارة حتى يرى مجموعة من الطير ثم يصوب بندقيته ويطلق العيار وسط الطيور. والممتع في الأمر أننا كنا نمسك بصقور الصيد لأطلاقها لتمسك بالحبارى التي كانت تستعد للمنازلة، وبعد قليل ترفع ذيولها وتطير في اللحظة الأخيرة، ومنها ما يطير ليختبئ وراء الشجيرات حين تطاردها السيارات وتُطلق عليها العيارات النارية. أما الصقور فقلما وجدت فرصتها لتثبت فعاليتها، وكثيراً ما تظهر امتعاضها بأن تأوي إلى صخرة من حولنا حتى ينادي عليها راعي الصقور ويجلسها على يده بعد إغرائها بفخذ أو قطعة لحم من الحبارى يخرجها من جرابه. وفي إحدى المرات كنت بصحبة الأمير عبدالله، وبعد مطاردة عنيفة للحبارى بالصقور اختفت الحبارى في كثبان الرمل في بنبان ولم نستطيع العثور عليها حيث اختفت عنا كليًا وضاع خلفها الصقر. وفي اليوم التالي بينما كنا نجول في المنطقة نفسها وقد يئسنا من أن نعثر على الصقر صادفنا وفد من الناس متجهين من الأرطاوية إلى الرياض، وإذ بأحدهم يسرع نحو سيارة الأمير عبدالله ويصيح قائلاً "خبر سار عن طيرك".

فكافأه الأمير وفرح بقدوم صقره "الشاهين البشيري" الذي ذاع صيته حتى عرفه المارة من الناس. و«الحر» طائر صيد من نوع آخر، خفيف اللون، ومشهور في نجد. ولم أسمع عن صقور تصطاد الغزلان، ولم أرى صقراً يُدرب على ذلك، مع أن هذا الأمر شائع ومعروف في أطراف صحراء الجزيرة العربية. وقد بلغنا بأن حكومة العراق قد حظرت صيد الغزلان بالسيارات. ولكن الملك لم يخف احتقاره لهذا الأمر، رغم أنه كان من الواضح له ولكل إنسان بأن البلد ستخلو من الصيد ما لم تصدر قوانين تحمى الحياة الفطرية. وقد حدث ما لم يكن منه بد، ففي هذه الأيام صرنا نسافر لمسافات طويلة جداً حتى نجد الغزلان، وبأعداد قليلة، وقد انقرض المها وأصبح معدوماً خلال السنوات الأخيرة في الشمال، كما انقرض النعام كلياً في الجزيرة، ولا أحد يهتم، وتلك مأساة حقيقية.

وفي الجانب الآخر كانت المحاولات جارية دون جدوى للقضاء على الجراد بدءاً بأكلها بالطرق التقليدية إلى عمليات الرش بطائرات الجمعية الدولية لمكافحة الجراد التي كانت ترش الجراد في المملكة منذ سنوات، وكانت قد قتلت أعداد هائلة منه تبريراً لوجودها كمنظمة. تلك كانت حقيقة، ولكن إنصافاً للحق فإنني أقوم يومياً بقتل مئات الذباب دون أن أقف عند الأعداد المتبقية منه التي تعكر مسيرة حياتي وحياة الآخرين. وكان الملك يقول بأنه سمع بأن الجراد يخرج من فم حوت ويقول بأن هناك حديثاً صحيحاً عن الرسول بهذا المعنى، ومع أن الكثيرين يشكون في ذلك، فإن الملك يعتقد بصحته ولا يزال، ويقول بأن الجراد يأتي من الجنوب من فم الحوت. والعرب

تعرف بيض الجراد والدبى والجراد ذو الأجنحة الصغيرة، أي الكيخان، الذي يصعب استئصاله، ولكنه في هذه المرحلة لا يستطيع التوالد ويأكل كل ما يأتي عليه قبل أن يختفي عن أعين الناس. وفي النهاية يأتي الجراد الذي يأكله الناس وهو يعيش في المزارع على المحاصيل ويضع البيض الذي يحمل أجياله القادمة؛ لذا يقول مثل عربي "نحن نأكل الجراد وهو يأكلنا" أي يأكل ما نزرع.

بينما كنا نصطاد في البر في أحد الأيام أدركتنا عاصفة في فترة ما بعد الظهر فيما كنا نهم بتناول الغداء. رأينا سحبًا سوداء تنذر بعاصفة هوجاء في الأفق الشمالي الغربي. وكانت تبدو بعيدة ولكنها مسرعة، وقرر الملك سرعة العودة إلى خشم العان التي تنحدر من هضبة العرمة، ولكننا لم نكن بالسرعة المطلوبة، وتطايرت الرمال من حولنا ثم هطلت الأمطار غزيرة، واستمرت نحو ساعة تحولت خلالها الصحراء إلى جنة من الأودية والشعاب. لقد كان المنظر عظيمًا وخلابًا، ومع بداية المطر عمدت بعض السيارات إلى مرتفع آمن بوادي السلي وعمدت أخرى إلى السير حين كان الطريق يسمح بذلك. وقد اكتشفنا الأخيرات هذه بما فيها سيارة المطعم بعد توقف المطر، ولم يكن أمامنا سوى الإسراع نحو القصر.

في هذه الأثناء كان الطريق مغطى بالمياه والوحل وقد غرزت سيارة الملك مرتين حتى غمرت المياه الماكينة، وكذلك بعض السيارات المرافقة. وحاول الرجال البالغ عددهم نحو الثلاثين من الموالي والحرس العمل جاهدين لخلع السيارات من الوحل. وبعد كل مرة كانت فيها سيارة الملك تخلع من الوحل، كان الملك يقف ليرى إن كانت الأخريات قد خلعن بسلام. لقد كانت

التجربة عاكسة لضعف نوع من الرجال اتخموا من قدور اللحم في الحجاز وبعض الشباب من الجيل التالي. لقد كان هنالك خبراء من الجيل الأول انتظروا ليتدخلوا بخبراتهم في الوقت المناسب لإنقاذ السيارات. وعندما وصلنا الرياض وجدنا أن وادي البطحاء قد امتلأ بالمياه ولامست المياه جدران البيوت وفاض وادي حنيفة، وعندها كانت الرياض لا تزال كما رأيتها أول مرة مع ظهور بعض المباني بما في ذلك جراج واسع للملك في الركن الجنوبي وقد خُلعت بعض أشجار النخيل لأقامة بعض البيوت. وكان الملك لا يزال في القصر القديم في وسط المدينة الذي يطل على السوق وعلى مسجد الديرة العتيق. وهناك مبنى قديم في الباطن وسط أشجار النخيل كان يستخدمه الملك كبيت ريفي للاستجمام بعيداً عن المدينة يلجأ إليه في أوقات العصر. كان تعداد الرياض آنذاك نحو ٣٠,٠٠٠ نسمة ولم يكن هناك ما يوحي بأنها سوف تكبر كمدينة في سنوات قليلة. لقد كانت الرياض ولا تزال مدينة لتسوق البدو، وإن كانت السيارات قد اختلطت مع الجمال حول القصر. قال الملك ذات مرة: "طالما لدينا القرآن فإيماننا بخير، وطالما لدينا جمال فشرفنا مصان" ولكن لم أدرك ما كان يعنيه تحديداً. هل كان مدركًا أن المدنية ستقضي على القيم كما كنا ندرك أنها ستقضي على الجمال. وفي المجالين فإن الصراع ربما يكون غير متكافئ، فهو صراع بين الراحة والفضيلة. ولم يكن من شك في تحديد الوجهة التي تسير الأمور نحوها. إن المعركة لم تحسم بعد، وبقيت الفضيلة في الجانب المدافع في مقابل قسوة الظروف وعنفوانها.

عادت سيارة المطعم التي أشرنا إليها، والتي كانت تبحث عنا بعد أن توقف المطر وأكلنا مما حملت قبل العودة إلى الرياض. أما الملك فبعد أن استمتع ببرودة الطقس والحالة التي تلت هطول المطر، راح فكره إلى النوم ورفيقات النوم. وكان أحيانًا يلقي بعضنا من شعره الخاص على مرافقيه لتسليتهم. وكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي أستمع فيها لشعره أو أعرفه شاعراً. وحين أشاد الحضور بشعره تواضع بالقول إنه شعر نبطي، أي شعبي، وهو شعر البدو.

وكنت قد اقترحت جمع وحفظ شعر الملك في البادية، إلا أن ذلك قوبل بالقليل من الاهتمام وعلمت لاحقًا أن أحمد ياسين الذي يعمل في مستشفى الرياض كان مهتمًا بهذا النوع من الشعر، وكان يحفظه ويلقيه في مجلس الملك أحيانًا عند الحاجة إلى الترفيه ولم يكن شعر البدو النبطي سهل الفهم، ويصعب نشره وترجمته إلى أي لغة أخرى.

كان الأمير سعود يرتدي حينذاك معطفًا أوربيًا فخمًا للوقاية من البرد. وسألني عن رأيي فيه وما كان لي إلا أن أظهر إعجابي به لأنه كان معطفًا جميلاً بحق. ولكن ما إن اكتمل تعليقي حتى خلع الأمير المعطف وناوله لي قائلاً: "هو لك، خذه أنا لدي آخر بالبيت". لقد أصبح المعطف الفاخر ملكًا لي، وقد أراحني كثيراً خلال فترات البرد التي تلت واستمر لأيام، وكانت درجة الحرارة لدينا آنذاك ٦٤ درجة فهرنهايت غير أن لسع الرياح في الصحراء في فصل الشتاء تجعل الطقس أبرد مما يبدو. ولا يستطيع مقياس الحرارة قياس معاناة الإنسان من البرد. أخبرنا الملك في تلك الأمسية بأنه عندما رجع إلى

القصر، كانت أول من سألت عن صحته في ذلك اليوم البارد هي عمته طرفه إحدى بنتين ممن بقوا على قيد الحياة لفيصل بن سعود[1] الذي توفى عام ١٨٦٥م أما البنت الأخرى وهي الأصغر فقد توفيت عام ١٩٣١م وكان زوج طرفة هو ناصر بن فرحان الذي توفي عام ١٩٣٩م. وقد علمت من الملك أن طرفه كانت يومها في سن الخامسة والثمانين. أعدت النظر في ذلك مؤخرًا، فقد كانت طرفه أصغر بقليل من والد الملك وكان عبدالرحمن بن فيصل والد الملك من مواليد عام ١٨٥٠م ولأنها أصغر من والد الملك فقد تبلغ ٩٦ عامًا، أي أكبر من الملك بخمس وعشرين سنة دون أن يكون بينهما أي من أفراد الأسرة المالكة. وكانت طرفة أمًا لولدين: محمد بن ناصر وكان حيًا، وعبدالله الذي توفي. وقد اشتهرت بعلمها ودفاعها عن الدين. قال الملك: "لقد جئت إلى الرياض خصيصًا لمشاهدتها والاطمئنان عليها. وحين سألوها مرة إن كانت تود الذهاب إلى مكة، أجابت بالطبع سأذهب إذا ذهب عبدالعزيز. وكان ذلك بعد عشرين عامًا من تلك الزيارة.

وبعد أن شكر ومجد عمته عرج الملك بالحديث تدريجيًا إلى النساء وحب النساء، فقال: "أنا أحب عائلاتي حبًا جمًا، ولكن لا أظهر لهن ذلك"، ثم سألنا "ماذا تعرفون أنتم عن الحب؟ إن البعض يتخذون زوجة واحدة وينامون في سرير منفصل عنها. أما أنا فليل الشتاء الطويل قصير عندي. وذكر أن نومه خلال أربعة وعشرين ساعة يتفاوت بين خمس وست ساعات ونصف الساعة، موزعة بين أوقات ثلاثة: بضع ساعات في منتصف الليل

(١) أي الإمام فيصل بن تركي جدّ جلالة الملك عبدالعزيز.

وساعة بعد صلاة الفجر وساعتين في القيولة، وقد يزيد عليها قليلاً في بعض الأحيان. وكان يظن أن النوم ضرب من الموت في حياتنا؛ لذا يقول بأنه لا يحب الإكثار منه ولكنه لا يشابه في ذلك عامة الناس الذين ينامون ساعات طويلة دون الإحساس بالقلق أو الذنب، وهو يعرف ذلك لأنه قضى عمره مقاتلاً ومحاربًا فمن الطبيعي ألا تماثل حياته حياة الرجل العادي. وفي المساء اقترح يوسف ياسين أن نخرج في مغامرة كالسير إلى وادي السلي الذي زرناه في العصر. وأجاب الملك قائلاً «حسنًا، سأعطيك ٢٠٠ جنيه ذهباً إذا ذهبت ورجعت قبل الشروق". وكان الوقت متأخرًا وعاود الملك اقتراحه وقال "سأعطيك ٣٠٠ جنيه ذهباً إن قضيت الليله في جبل أبو مخروق"، وكان يبعد عن الرياض بنحو ثلاثة أميال في اتجاه الشمال. وهو مخبأ صخري هائل تسمح بمرور السيارات، مكان رائع للاستجمام نهاراً رغم ما اشتهر به من جن وشياطين يظهرون بالليل. وما كان أحد ليمر عليه ليلاً ناهيك عن دخوله. لم يكن يوسف خائفًا وقبل العرض بشروط قائلاً "سأفعل ذلك إذا سمحت لي بوقود وثقاب للتدفئة مع فراش ورفيق".

كان هذا بعض من الجانب غير الرسمي في البلاط الملكي إذ كان الملك يحاول أن يتسلى بأمور تلهيه قليلاً عن مهام الحكم وهموم الدولة. وكان يجب على كل سكان القصر حضور صلاة الفجر مع الملك في غرفة خاصة فوق المسجد يصلي فيها هو، والإمام في الأسفل. ويوم الجمعة يحضر الملك الصلاة في المسجد الجامع حيث يتحرك بصحبة الحرس والحاشية. وفي المسجد خُصص له مكان علوي في الجزء الغربي من المسجد، والمكان المخصص يمتد

على عرض المسجد إلا أنه لا يتسع سوى لصفين فقط من المصلين، وكان يصلي فيه معه أفراد الأسرة المالكة والحراس والخدم. وهنا أيضًا يصلي الإمام في الأسفل ويسمع الملك ومن معه الخطبة ويشهدون الصلاة وتكون النوافذ مفتوحة ويمتد المنبر الذي يشير إلى القبلة من الأسفل إلى حيث يصلي الملك. ولا يعرف أحد كم عدد المصلين في الطابق العلوي. وربما يكونون أكثر عدداً ممن هم في الطابق الأسفل. ومعلوم أن الملك كان يطيل السنة بعد الجمعة وغيره يكتفي بركعتين أو أكثر ويجلسون في انتظاره مسندين ظهورهم للجدران. ويكون أحد الموالي جاهزًا بأحذية الملك وعصاه حتى يجدها حوله عندما ينهض للرجوع. وكان الملك في كل العبادات وأمور الدين حريصًا ومواظبًا مع أنه قلما أمَّ الناس في الصلاة. وكان إمامه يصحبه في المعسكرات وجولات الصيد والرحلات الأخرى. وكان يخلع الحذاء عند دخوله المسجد وأحيانًا يدخل بالخف دونما خطة معينة وحسب مقتضيات الحال. ولكن لم يكن يسمح لغير الخف بدخول المسجد. وفي نجد والرياض هناك حصباء عند مدخل المسجد تخلع عليها الأحذية، ولكن كان يسمح بدخول المسجد بالخف وانتعال الحذاء خارج المسجد في الفسحات والحوش تيسيراً للناس ومنعًا للحرج. وكان الشباب قد بدأ لبس الأحذية الأوربية خلافًا للنعال والخف. وكان جل لبس الملك الصندل وكان يتركه بباب المسجد. وحتى حين تكون قدمه مصابة كان يلبس عليه الجورب وعند دخول المسجد يخلع النعال أو يتركها بغرفته قبل الدخول.

وفي ذات يوم دار الحديث حول ثورة عدوان في الأردن عام ١٩٢٣م. وقال يوسف ياسين الذي كان في عمان آنذاك، إنه في غياب بيك باشا فإن

الفيالق العربية كانت ستساند الثوار إن كانت الظروف مواتية. وقد عارضت هذا الرأي لأنه لم يكن له مبرر كاف. وقام الدكتور محمد بتمجيد ضباط الفيلق العربي أمثال فؤاد سالم الذي أعلم أنه كان يدين بالولاء للأمير عبدالله والبريطانيين ويستلم المال منهم، وكان في ذات الوقت يعمل في الخفاء ضدهم ويألب عليهم جيوشهم. وعلق الملك بقوله إنه لا يحبذ هذا النوع من العمل. وقال دكتور محمد بأنه كان سيفعل الشيء نفسه وما كان يهمه إن ساقوه إلى الجحيم جراء ذلك. ولامه الملك على قولته هذه بأنها قد تكون كفراً وطلب منه الاستغفار. وبالفعل استغفر محمد لقولته تلك، بعد أن زج بنفسه في أمر لا يأتي لطبيب لا يعرف في أمور السياسة.

وكان الملك حسين آنذاك في عمان، وكانت صحف بغداد قد نشرت رغبته في زيارة العراق، ونشرت إحداها ثلاث مقالات له كتبها في العقبة قبل ست سنوات، وكانت تحوي هجومًا حاداً على ابن سعود والبريطانيين. وقد قُرأت هذه المقالات على الملك في جلسة خاصة في صالونه، وسر الملك للاطلاع عليها. وكان الرأي العام آنذاك مضاد للعراق في نجد بالرغم من تجربة فيصل الدويش وأتباعه. وفي يوم قال لي ماجد بن خثيلة ومطلق بن زيد، وكلاهما كان من أتباع فيصل الدويش وعفا عنهما الملك وأدخلهما في خاصته "لماذا لا يتركنا هذا الرجل – ويقصدان ابن سعود – نحارب الكفار، ويقصدان البريطانيين؟ فقلت لهما: إنهم سوف يسحقونكم بمدافعهم وطائراتهم، وماذا ستجنون أنتم من وراء ذلك؟" قال ماجد "سندخل الجنة" فقلت لهما بكل صراحة: إن ذلك لا يهمني كما تهمني قضية مصلحة

العرب. "وما هو مصير القضية حين تدخلون جميعكم الجنة بتلك الطريقة؟" وبالرغم من موقف الملك كان هناك سخط في الصحراء ضد ما يفرضه الملك على الإخوان الذين كانوا يريدون العمل لخدمة العقيدة. وكان يجب فعل شيء لامتصاص غضبهم وهو أمر لا يلامون عليه. فعلى مدى ربع قرن ظلوا يسمعون أن خير الرجال هم من يقتلون الكفار. وفجأة صدرت إليهم الأوامر بالتوقف عن قتل الكفار، وكانوا يتمنون الشهادة، وإن قتلوا وعدوا بالجنة. وجاء الكف عن قتل الكفار بشيء من النعيم في الدنيا. لقد كان أمثال من تحدثا إليَّ يفضلون طريق القتال، ولم أكن أعلم ما يراه بعض أبطال الماضي أمثال فيصل بن حشر الذي كان بالرياض ويحضر جلسات الملك، في هذا النهج الجديد بعدم قتل الكفار.

وقد اشتهر فيصل بن حشر القحطاني بأنه قتل مئة رجل في موقعة واحدة؛ مثله مثل معاصره فيصل الدويش الذي كان يرقد وقتها في السجن على بعد رمية حجر من قصر الملك وكان قد روَّض نفسه طيلة حياته على الصعاب، فهو لا يكثر من شرب الماء ولا يشرب القهوة كعامة الناس ولا حتى لبن الجمال ولبن الغنم إلا بالقدر الذي يحتاجه جسمه. وخالد بن لؤي، أحد أبطال الماضي أيضًا، كان أوفر حظًا بتواجده من وقت لآخر في خدمة الملك على حدود اليمن، وتوفي من حمى خلال إحدى الحملات في منطقة تهامة، بالنسبة لكل هؤلاء الأبطال في جزيرة العرب فإن سياسة ابن سعود الجديدة بعدم قتل الكفار لم تكن مقنعة، غير أنه استطاع بقدراته الفائقة أن يخضعهم بسلطته. ومرت الأيام، والشيء الوحيد الذي أدى إلى تأجيل سفرنا من الرياض هو عدم تمكن وزارة المالية من إرسال الوقود

والزيت اللازم للسيارات للرحلة الطويلة حيث استخدمنا كل الوقود في رحلات الملك للصيد، ورغم انزعاجي إلا أن التأخير بالنسبة لي لم يكن مصدر قلق لأني لم أكن عائداً في ركب الملك إلى مكة، إذ كان مقرراً لي زيارة الربع الخالي حسب ما أخبرني الملك عند مغادرته مكة. وكنت قد أشغلت نفسي بالإعداد لها وعمل يوسف ياسين على إعداد لوازم الرحلة ووضع شروطها التي كان من بينها سقوط أي حق لأسرتي في المطالبة بأي تعويض عند وفاتي هناك. كما لا يحق للحكومة البريطانية اعتبار تلك الأراضي التي سأقوم بمسحها أراض بريطانية بحكم جنسيتي. وكان من السهل قبول تلك الشروط، وفيما يخص الشرط الثاني فقد طلبت منهم أن يكون القائد الرسمي للرحلة أحد رجال نجد.

وقد تم ترتيب الأمور وتجهيز كل اللوازم، وكان عليَّ الذهاب عند مغادرة الملك للحجاز والرجوع إلى مكة في موسم الحج، إذ من الممكن تأخير الحج لعام آخر ولكن الربع الخالي قد لا تتأتى لي الظروف لزيارتها ثانية. وعلمت أن برترام توماس حاكم مسقط كان يود زيارة الربع الخالي أيضًا ولكن من الاتجاه الآخر. وكان من المحتمل أن نلتقى، فيما وصفه الدكتور هوجارث بأكبر أرض غير معروفة في العالم خارج القطبين، ويقصد الربع الخالي. ولكننا لم نلتق، وقبل مغادرة الملك إلى مكة بأسبوع أرسل إليَّ وأخبرني بأنه لديه أخباراً تهمني، وقال: إن بني مرة يعانون بعض المتاعب في العراء مع الدعكي في حدود عمان وأن تلك الغزوات قد تجعل الربع الخالي منطقة غير آمنة، وعليَّ تأجيل رحلتي إلى هناك. كان ذلك الخبر محبطًا لي وعلى غير ما توقعت.

أما توماس فلم يكن يعلم عن عدم استقرار الربع الخالي. وبذا كان له الشرف بأن أصبح أول أوربي يعبر صحراء جنوب الجزيرة العربية دون إذن الملك أو علمه.

مرت أيام في الصيد وأمسيات في الأنس وجاء ظهر يوم ١٧ يناير ليغادر الملك إلى مكة، وليقطع ٣٩٠ كلم في اليوم الأخير. ووصلنا بعد ساعة من الغروب مساء اليوم العشرين من يناير مع بداية شهر رمضان. وكانت الرحلة سريعة بعيدة عن الراحة أو المتعة. وقد تخللتها عواصف رملية بالنهار إلى جانب الغبار الذي كان يصدر عن سيارة الملك طيلة الرحلة.